هـ. سامي عليم

الفصل الثالث عشر

جدول أعمال بحث جديد
استكشاف أمة الأناشيد الصاخبة عبر العالم

عليم: متى حصلت على معرفتك الإسلامية؟

موزديف: أخذت شهادتي قبل أربعة أعوام.

عليم: لاحظت في أغنية «لا تخشَ الإنسان» أنك افتتحتها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» فهل كان ذلك هاماً لألبوم المختارات؟

موزديف: حسناً. لقد تلقيت نصيحة بأنك عندما تقوم بأعمال تخرج للجمهور ـ أعمال مكتوبة أو منطوقة ـ فإن عليك أن تباركها بهذه الطريقة كما تعرف. وهذا معقول عندي. فالمستوى الروحي يضع الختم عليها. وكأنني أبذل جهداً للوصول إلى الله بذلك. وأرجو أن تكون جهودي مقبولة إن شاء الله.

موزديف: مقابلة مع المؤلف، مقتبسة جزئياً في كتاب عليم 2001 ب

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»... هذه هي الكلمات التي يعلنها المغنون موزديف، وبيني سيغل، وفريوي، وكومون، وتشاك د. ونابليون من فرقة أوتلوز، والرضا، إلى جاني مليار مسلم آخرين حول العالم عند قبولهم عقيدة الإيمان الإسلامي. وتنطوي هذه الكلمات على التزام ضمني بحياة تحكمها، وتنظمها، وتتوسط فيها تعاليم الإسلام التي تعلم المسلمين أن «لا يخشوا البشر»، وأن يخشوا الله وحده (كما يوضح موزديف، مغني بروكلين، أعلاه). ورغم أن الإسلام ظل ممارسة معيارية للأميركيين الأفارقة عبر القرون التي تلت العبودية، فإن القصة الكاملة للحركات الأميركية الإفريقية الإسلامية لم تُسْرَد بعد. وعلى رغم وصف الصحفي هاري آلن الإسلام بأنه «الدين الرسمي» للأناشيد الصاخبة، فإن حضور الإسلام الحيوي المتحرك ودوره المركزي في أمة الأناشيد الصاخبة ظلا إلى حد كبير بلا استكشاف.

وفي هذا الفصل الاستكشافي الأخير من كتاب **الشبكات الإسلامية من الحج إلى الأناشيد الصاخبة**، سأثير عدداً من القضايا والأسئلة لمزيد من الاستكشاف في محاولتنا المستمرة لفهم ما أسميه «أمة الأناشيد الصاخبة عبر العالم» ضمن أمة إسلامية بلا حدود. إذ أن النبي محمداً لم يتحدث عن «عراق إسلامي» أو عن «صومال مسلم»؛ بل تصور مجتمعاً مسلماً عبر العالم، أي أمة تقوم المواطنة فيها على العقيدة، وليس على تمايزات الأمة ــ الدولة المعاصرة، أو بالأحرى على كيفية تقطيع رسامي الخرائط الاستعماريين للمشهد العالمي. فالهدف الأصلي من الأمة هو أن تكون شبكة مثبتة بالإيمان ولكن متحركة في كل أجزائها.

ونستطيع أن نبدأ بالأسئلة العامة: كم نعرف عن العلاقة بين «الأناشيد الصاخبة» والإسلام؟ بل هل نرى أن هاتين الجماعتين متلائمتان؟ ونستطيع أن نزيد تعقيد مشكلة فكرة «الأناشيد الصاخبة» الإسلامية بأن نعيد النظر بصورة عامة أكثر في ماهية معنى أن يكون المرء فناناً إسلامياً، كما طلبت منا جوديث إرنست أن نفعل في فصلها. ويمكننا أن ننغمس بصورة أعمق في تاريخ الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة ونطرح أسئلة كالتالية: بما أن الحضارة الإسلامية كانت «عابرة للقومية» و «رابطة» في الوقت نفسه (كما يكتب كوك ولورانس في مقدمتهما)، فكيف برزت

خاصية هذا الترابط العابر للقومية ضمن الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة؟[1] وعلاوة على ذلك، ومع مراعاة الطبيعة العابرة للعالم في الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة، التي تطورت قبل عقدين من الزمن على الأقل في مرحلة الحركة المبكرة (سبيدي ويوري 1991، وميتشل 2001) ــ وهو ما أشار إليه بيركنز (1996) «بقرية الشاب العالمية» وأوسومير (2002) باسم «عولمة الأناشيد الصاخبة» ــ فكيف قامت هذه الأمة الثقافية التي ليست لها حدود تقليدية بخدمة أغراض نشر المعرفة والقيم، والتعاليم، والأفكار، والمثل الإسلامية؟

قبل أن نتمكن من النظر في أمة الأناشيد الصاخبة العابرة للعالم، فإننا بحاجة إلى استكشاف التواريخ المخفية للحركات الإسلامية الأميركية الأفريقية في أمة الأناشيد الصاخبة. وكما يجادل سبيدي (2002) فإن «مما يساعدنا هو فحص الانتشار الحالي لثقافة الأناشيد الصاخبة في جميع أنحاء الجزائر وغيرها من البلدان الأفريقية ضمن السياق التاريخي لحركات الوحدة الإفريقية والوحدة الإسلامية والوحدة الزنجانية في القرن العشرين»[2]. وعن طريق استخدام المصادر الأولية، أي التواريخ الشفوية، وتاريخ سِيَر الحياة الذاتية، نستطيع أن نبدأ في تنمية فهم أعمق للوعي الاجتماعي، والسياسي والثقافي الذي هو مركزي الأهمية لفلسفة الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة. وفي الوقت نفسه يعتمد بحثي على الأساليب التقنية للأنثروبولوجيا الوصفية، ويتطلب اتصالاً مباشراً مع فناني الأناشيد الصاخبة في كل مكان تُمارس فيه هذه الأناشيد، أي من الاستديوهات والملاعب العامة إلى الشوارع.

وهناك حاجة لتصور الإسلام بشكل واسع يضم طيفاً من العقائد والمدارس الفكرية. وسوف أركز على ثلاثة من أكثر أشكال الإسلام انتشاراً وبروزاً في أمة الأناشيد الصاخبة في الولايات المتحدة – وهي أمة الإسلام، وأمة الآلهة والأرضين (أو الخمسة بالمائة من أمة الإسلام)، والجماعة المسلمة السنية. فبينما توجد اختلافات لاهوتية ومصطلحية بين هذه الجماعات فإنها جميعاً ترى الإسلام كقوة تحويلية في حياة ممارسيه. وتكشف البيانات تشابهات بين آراء أتباع هذه الجماعات. وعلى سبيل المثال، فإن الإيمان بالله والقرآن الموحى به إلى النبي محمد هو عقيدة

كل الجماعات الإسلامية. وهذه التشابهات تتكشف من خلال المناقشات مع فناني الأناشيد الصاخبة حول مختلف العمليات الخلاقة التي تنطوي عليها حرفتهم.

نصوص الأناشيد الصاخبة والنص القرآني:

تشابهات هيكلية ورمزية

تماماً مثلما تظل مكة هي الرمز المعنوي المجازي للشبكة الإسلامية العالمية، تظل مفاهيم القرآن والإيحاء به للنبي محمد هي قلب المعتقدات الإسلامية. وأعضاء أمة الأناشيد الصاخبة الذين يمثلون الحركات الإسلامية الأميركية الأفريقية الثلاث التي ذكرتها آنفاً لاحظوا بشكل مستقل أن الوسيلة ذاتها التي أوحي بها القرآن للنبي – أي شفوياً وبنثر مسجوع إلى حد كبير ـ تعرض لنا مشابه لأسلوب النقل اللغوي والأدبي الموجود في الإنتاج الغنائي للأناشيد الصاخبة. ولم يحدث إلا نادراً أن تم تفسير التقليد الشفوي الأميركي الإفريقي بهذه الطريقة، ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين قد تصوروا على نحو خلاق روابط بين طريقة إنتاجهم وبين إيمانهم الإسلامي. فعن طريق عشرات من المقابلات الآنثروبولوجية الوصفية مع فناني الأناشيد الصاخبة في الولايات المتحدة، اتضح لي بأن فناني الأناشيد الصاخبة المسلمين كانوا يقيمون علاقات جديدة بين إنتاج هذه الأناشيد الغنائي وبين الطريقة والوسيلة اللتين أوحى الله بهما القرآن للنبي. فقد كانوا يصوغون شبكة جديدة عابرة للقومية حتى وهم يعترفون بسوابقها التاريخية ويبجلون امتيازها.

وأثناء الانهماك في محادثة حول كيفية تعرف الشبيبة السود، وقبل سن المدرسة في حالات كثيرة على لغة الإيقاع، فقد زعم المغني المتخصص بالإيقاع وإيز إنتليجانت (وهو عضو من جماعة الآلهة والأرضين ومجموعة المغنين المسماة المعلمين للفقراء الحقانيين): «إن عليك أن تفهم أن فعالية القتامين الداكن في الرجل الأسود تجعله بطبيعته إيقاعياً. فعندما يسمع أي شيء فيه ذلك الإيقاع المسجوع فإنه سيصبح جزءاً منه على الفور أي شيء موزون. فكثير من أسلافنا كانوا شعراء. إمنحوتب الذي بنى أول هرم متدرج، والفرعون أخناتون كان شاعراً.. إن الإيقاع في دمنا.»

(سبيدي ويوري 1991، ص74) والمغني الإيقاعي موز دوف، عضو الجماعة المسلمة السنية، ناقش أسباب اعتقاده بأن أغاني الأناشيد الصاخبة يمكن أن تكون وسيلة فعالة في الممارسة التعليمية. وفي منتصف وصفه المليء بالحيوية والحركة، رسم جسراً بين الأوزان الشعرية لتلك الأناشيد والنصوص القرآنية باعتبارها أشكالاً من الشعر، ولكل منها نظام إيقاعي موزون، وقدرة على نقل «معلومات حيوية» في زمن قصير نسبياً. وكانت معرفته بالقرآن وباللغة العربية التي نزل بها الوحي واضحة بجلاء في تعليقاته:

عليم: ما هي العلاقة الأوسع التي تشعر أنها يمكن أن توجد بين الأناشيد الصاخبة والتعليم؟

موزديف: إن الأناشيد الصاخبة يمكن أن تكون ظاهرة استثنائية، وكذلك علاقتها بالتعليم ظاهرة هامة للغاية، بمعنى أن هذه الأناشيد وسيلة يمكنك استخدامها لتخزين معلومات كثيرة في مساحة صغيرة جداً، وبطريقة تجعلها تلتصق بذاكرة الناس. فهي شكل جذري من نقل المعلومات.

عليم: وإذن فأنت تعتبرها أداة لنقل المعلومات؟

موز: نعم بحق الجحيم! هل تعرف كمية المعلومات ـ أقصد المعلومات الحيوية ـ التي يمكنك نقلها في ثلاث دقائق... أقصد أن القرآن كذلك. إن سبب تمكن الناس من حفظ القرآن [عن طريق الدراسة والتكرار المتواصل] هو أن القرآن كله مسجوع [وهنا يبدأ موزديف بترتيل آيات إسلامية من القرآن] «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين» وكل السور فيها سجع من هذا النوع، مثلاً: «قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» مرتبة بشكل لا تكاد تلاحظه: «إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً.» فالسجع متوفر فيه

كله بهذه الطريقة، بحيث يلتصق جيداً بذاكرتك. هل ترى ما أقول؟ وبعدئذٍ تبدأ بإقامة علاقة أعمق مع النص عند تلاوته، فتتعلم سورة الإخلاص، وتتعلم الفاتحة، وتتلوهما... وأثناء التلاوة ذات يوم تبدأ بالفهم! وتصبح لك علاقة أعمق بما ترتله: «أعوذ بالله ن الشيطان الرجيم» آه! هل تفهم ما أقول؟ إن الأناشيد الصاخبة لديها القدرة على هذا التأثير ــ على المستوى الشعري (مقابلة مع المؤلف مقتبسة جزئياً في كتاب عليم 2001 ب).

كما أن المغني الإيقاعي في منطقة باي JT ذي بيغا فيغا، العضو المسجل في أمة الإسلام يشير إلى أوجه الشبه الأدبية بين ما يؤديه الأميركيون الأفارقة الشباب في اللغة (انظر عليم 2002، 2003، 2004) وبين استخدام الله المقصود للغة كأداة تعليمية للوصول إلى قلوب البشر وعقولهم. وفي مناقشة للعلاقة بين «لغة الشوارع» و«لغة الأناشيد الصاخبة»، يعتمد JT على معرفته بالقرآن ويربطها مع زميله في منطقة باي Bay Area المغني الإيقاعي E-40 واستخدامه المبتكر والمجازي للغة.

عليم: كيف يأتي JT بكل هذه الأشياء المختلفة، أيها الرجل؟

JT: تماماً كما يتحدث مختلف الناس، وكما نتحدث أنا وأنت، وبالنسبة إليه فإن ذلك يسمى النقع بالتوابل والخل

عليم: نعم، لقد سمعته يقول ذلك.

J: النقع. إننا نقوم بالنقع الآن... فالله يصف أنبياءه بأنهم نور القمر. ويصف كلماته التي يتحدث بها في عبارات مجازية. فهو يذكر الغيوم عندما تصبح ثقيلة بالماء، ويعود الماء إلى الأرض. والماء أثقل من الجاذبية فهو ينسلك ينابيع في الأرض الجافة، فينبت زرعاً يخرج من الأرض... فهل شعورك معي؟ [يبدو أن J يشير هنا إلى ثلاث آيات متفرقة في ثلاث سور هي الآية 7 من سورة الأعراف، والآية 13 من سورة الرعد والآية 39 من سورة الزمر: المترجم]. ثم تحدث النتائج، بينما الكافرون ينظرون إلى الأرض الجافة

والشمس تحرقها...

عليم: وهكذا فهو يصف المؤمنين أثناء نمو الأشياء، صحيح.

J: نعم، نعم. إنه يصف الأحوال المختلفة. هل تعرف ما أقول؟ ويمكن أن يرتبط ذلك بالطبيعة، فهل تشعر بذلك معي؟ الطبيعة. وإن ما نراه، وطريقة سلوكنا يمكن ربطها ببعض جوانب الطبيعة. وهذا يشبه تقريباً ما يفعله E-40 عندما يأخذ كلمة ويطبقها، فهل شعورك معي؟ (مقابلة مع المؤلف).

وسواء عند الانهماك في حديث عن معرفة الأطفال السود الصغار «بلغة الإيقاع»، وإمكانية التعليم الكامنة في الأناشيد الصاخبة، أم عند استخدام فنانين محددين للغة بطريقة ابتكارية وتجديدية ضمن أمة الأناشيد الصاخبة، فإن هؤلاء الفنانين يستحضرون معرفتهم الإسلامية لتحقيق مهمات متنوعة. فبالنسبة لوايز إنتليجانت، فإن من المعقول أن ينتبه الأطفال السود جيداً «للغة الإيقاع» لأن أجدادهم ـ حسب وصفه ـ بما فيهم النبي محمد، كانوا دائماً يقظين للشعر، وللقافية على وجه الخصوص. وبالنسبة لموز ديف، فإن قدرة الأناشيد الصاخبة على تأدية مهمتها باعتبارها «شكلاً جذرياً لنقل المعلومات» كما يسميها، شبيهة بالوسيلة الشعرية والتعليمية التي أوحى بها الله بالقرآن للنبي محمد كي يبلغه للبشرية. ويشير JT البيغا فيغا إلى استخدام الله للتعبير المجازي، كي يوضح JT وصفه للتجديد المعجمي والتوسع اللغوي عند E-40. فوصف فناني الأناشيد الصاخبة لمهنتهم كثيراً ما يذكر المرء بوظيفة القرآن. ففي كثير من مقابلاتي، كنت أسمع استحضار المعرفة الإسلامية في تدفق الحديث (كما يحدث كثيراً في المحادثات بين مسلم ومسلم)، مما يشير إلى أن أعضاء أمة الأناشيد الصاخبة يدرسون الإسلام ويطبقونه في حياتهم اليومية.

وكلاء أمة الأناشيد الصاخبة عبر العالم

بعض الأفكار للبحوث في المستقبل

كانت موسيقى الأناشيد الصاخبة أداة فعالة للاحتجاج الاجتماعي في الولايات المتحدة. وكانت أهدافها هي العنصرية، والتمييز، ووحشية الشرطة، وسوء التربية والتعليم، وغيرها من الأمراض الاجتماعية (روز 1994). وكثير من الفنانين المشاركين في المظاهر العالمية للحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة ـ في أماكن مثل فرنسا، وكندا، واليابان، وإيطاليا، وجنوب إفريقيا، وفلسطين ـ يقاومون الأشكال المتعددة للقمع والظلم في المجتمعات العالمية. وعندما قام رائد الأناشيد الصاخبة آفريكا بامباتابتدشين أمة الزولو المتأثرة بالإسلام في الولايات المتحدة في السبعينيات، ثم وسّع الحركة عالمياً في أماكن مثل فرنسا في أوائل الثمانينيات (بريفوس 2001)، فإنه كان يجري تشبيكاً للمساعدة على نشر أفكار ومثل واعية على الصعيدين السياسي والاجتماعي، من أجل بناء جماعة من الناس الذين سيقاومون الخضوع الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي مقاومة فعالة. ويكتب تيد سويدنبرغ عند استكشافه ما يشير إليه باسم «الحركات الإسلامية السريّة العالمية» وتعليقه بشكل خاص على حركة Fun-Da-Mental في إنكلترا وحركة IAM في فرنسا: «يحاول المسلمونفي كلا هذين البلدين أن يقيموا مجالات ثقافية واجتماعية وسياسية لأنفسهم كمجموعة عرقية (ولو من نوعية رديئة)، وهم مشاركون بشكل جماعي كثيف في التعبئات المعادية للعنصرية وضد تفوق العرق الأبيض. وقد كان نشاط الأناشيد الصاخبة مجالاً هاماً للمسلمين الفرنسيين والبريطانيين معاً للتعبئة ضد نزعة التخوف من الإسلام» (2002، ص16).

إن هذه الأمثلة المختصرة واللافتة للنظر من الأنشطة المعادية للاستعمار، والمعادية للعنصرية تقدم لنا سلسلة من المواقع لاستكشاف أسئلة أساسية: كيف يقوم الأعضاء المسلمون للحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة بالانتقال من الوعي الاستطرادي إلى الوعي العملي؟ وبكلمات أخرى: كيف ينتقل هؤلاء الوكلاء من «**التحدث** عن هذا الوعي إلى **ممارسته** والمشاركة فيه؟»، كما يقول بعض المختصين بالأناشيد الصاخبة. وما هو الشيء الذي يجعل تشاك دي، التابع لمجموعة العدو العام Public Enemy، «يحاول أن يقوم ببعض الأشياء التي يتحدث عنها» (سبيدي

ويوري 1991، ص191)؟ وعندما يصرح JT البيغا فيغا من سان فرانسيسكو بقوله: «أستطيع أن أجلس هنا وأتحدث إليك وأخبرك بما أفكر أنني أراه. ولكن معرفة ذلك بشكل حقيقي في قلبك معناه أن تعمل بموجبه، حتى بطريقة أكبر»، فما الذي يساعد على تحويل الحركة إلى وعي عملي للأمة؟ من الواضح أننا نستطيع، من هذه الروايات، أن نرى أنّ مثل هذه الحركات تستند على الإيمان. ويتابع JT: «وليكن لديك إيمان بنفسك، وبالله الذي جاء بك إلى الوجود لتعرف ذلك «إنني وراءك. فافعل الشيء الملهم»، (مقابلة مع المؤلف).

إن بحثي لا يقتصر على الكشف عن كون هؤلاء الفنانين دارسين للإسلام (كما يظهر من قدرتهم على اقتباس مقاطع من القرآن ووصفها بوضوح) ومطبقين له في حياتهم اليومية، بل إنهم أيضاً يُشَغِّلون الإسلام عملياتياً، أي أنهم يعملون بموجب ما تعلموه كي يساعدهم ذلك على بناء أمة. فموز ديف لا يكتفي بالغناء فقط عن قضايا مثل الوعي والعدالة، بل إنه يعيش هذه القضايا. فقد دفعه وعيه الإسلامي، مع شريكه طالب كويلي، إلى إنقاذ مكتبة نكيرو، وهي دكان كتب يملكها أسود في مجتمع موطنه في بروكلين، من الاضطرار إلى الإغلاق. وقاده ذلك الوعي إلى المشاركة في إنتاج ألبوم أناشيد صاخبة بعنوان (**أناشيد صاخبة من أجل الاحترام**) خصصه لتمكين ضحايا وحشية الشرطة والاغتيال غير الأخلاقي لأحمدو ديالو من الحصول على العدالة. وأحمدو ديالو هو مهاجر من غينيا قتله ضباط قسم شرطة نيويورك في عام 1999. وقد شرح موز آيات من القرآن وعبّر عن إيمانه بالله في اجتماع عام حاشد ضد تبرئة الضباط الذين أطلقوا على الأخ ديالو إحدى وأربعين طلقة: «إلى الناس الباحثين عن العدالة، وإلى أسرة أحمدو ديالو، ولكل من يتكلم ضد الظلم والقهر أقول: **لا تخافوا**، إن الله هو أحكم الحاكمين».

وبالمثل فإن الوعي الإسلامي لدى تشاك دي، الرجل القيادي في الخط الأمامي للمجموعة المسماة «العدو العام» (Public Enemy) قد نقله من تقديم المعزوفات والأغاني في أداء حيّ مباشر في قاعات الموسيقى إلى إلقاء الخطب عن بناء الأمة في الشوارع، وفي السجون وفي مدارس جماعات السود. وهذا ما جعله يصبح أشهر مدافع

معروف عن «الاستغناء عن الوسيط» في صناعة الأناشيد الصاخبة وتسجيلاتها بالالتفاف على رقعات العلامات التجارية على أشرطة التسجيل، وعلى الموزعين، وعن طريق بناء علامات تجارية مستقلة، والعمل في التجارة الآليكترونية. أما JT البيغا فيغا فلم يقتصر إدراكه على «أن لديه عملاً أكبر يؤديه من خلال هذه الموسيقى»، بل لقد ساعد أيضاً على تعزيز حيوية جماعاته المحلية في فيلمور وبيز فيوهنترز بوينت عن طريق تلبية مواعيد ودعوات لإلقاء الخطب، وإعطاء دروس في العمل التجاري للشبيبة. فلم يكتفِ بالحضور والتأييد الفعال في مسيرة المليون رجل ومسيرة المليون أسرة، وكذلك مؤتمرات قمة الأناشيد الصاخبة التي نظمت برعاية أمة الإسلام وإشرافها عام 1997، بل لقد قام أيضاً بتجميع مجموعة من الشباب السود واللاتينيين، وأهالي جزر المحيط الهادي في مشروع تجاري تعاوني وطني أطلق عليه اسم وول ستريت الأسود (إحياءاً لذكرى وول ستريت الأسود في أوكلاهوما الذي ضربته حكومة الولايات المتحدة بالقنابل عام 1934)، وبذلك قدم فرصاً لإقامة الشبكات وللتنمية الاقتصادية لأولئك الذين يُستَبْعَدون تقليدياً من مثل هذه المشاريع.

وأنا أجري الآن بحثاً لكشف المزيد من هذه النشاطات الإسلامية لبناء الأمة ضمن أمة الأناشيد الصاخبة. غير أن هناك حاجة لتوجيه المزيد من الانتباه إلى استكشاف دور الفنانات المسلمات اللواتي يتحجبن باسم الله. فما الذي نعرفه عن كفاح المغنية إيف (من فيلادلفيا) وبحثها عن السلام الداخلي في صناعة تسجيلات غنائية يسيطر عليها الذكور؟ وكما تذكرنا هي «فإن السماء وحدها تعرف». غير أننا نستطيع البدء بواسطة إشراك إيف وغيرها من الفنانات المسلمات في حديث غير رسمي. فإيف، التي فتحت الملاحظات المحددة عن ألبومها المعنون «**عشية الدمار**» بقولها: «إن الحمد كله لله»، تتحدث عن علاقتها بالإسلام: «إنها ليست قوية كما يجب أن تكون. إنني أكافح. وعندما أصل إلى النقطة التي أكون فيها مستقرة فإنني بالتأكيد أريد أن أتحجب وأذهب إلى المسجد. أما الآن فإن ذلك صعب. إنه صعب حقاً. ولكن له قبضة علي مؤثرة. وأنا أصلي وأدعو الله كل ليلة، وكل صباح، وطيلة اليوم كله. أتدري ماذا أقول: لولا الله لما كنت حاصلة على البركة». (مقابلة مع المؤلف

مقتبسة جزئياً في كتاب سبيدي، ولي، وعليم عام 1999). وما الذي نعرفه عن المغنية المصرية «متماسك» في مدينة نيويورك؟ (و«متماسك» تعني العنيدة الثابتة بالعربية) وما هي كفاحاتها الشخصية وكيف أسهمت في أنشطة بناء الأمة عن طريق موسيقاها وما هو أبعد من موسيقاها؟ (انظر سويدنبرغ 2001).

السياق الدولي

ما هي العلاقة بين الحركات الإسلامية الأميركية الأفريقية في الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة وبين العالم الإسلامي المعولم؟ وما هو نوع أنشطة بناء الأمة التي تحدث عندما يقوم رضا، المنتمي إلى عشيرة ووتانغ بزيارة إخوانه المسلمين في مصر، أو عندما يلتقي صونز (من حركة Man) مع جماعة IAM في فرنسا؟ وما الذي يحدث عندما يقوم الزجال ورسام شعارات الخربشة الفلسطيني مساري بخربشة شعار يقول: «حرروا فلسطين» على حائط في مدينة سان فرانسيسكو؟ ثم يخربش الأسطر التالية على الشوارع الإسمنتية في الولايات المتحدة ليلاحظ أنه «في رام الله يناضل إخوتي نضالاً مباشراً» (مقابلة مع المؤلف، 2001):

تلك الأرواح المفقودة هي في روحي

وهكذا فإن مهمتي الآن هي أن أخطط

فليتعفن الشر من الداخل

وليعش شعبنا إلى الأبد، لأن الأرواح لن تُنسى.

ما الذي نفهمه من أبناء وبنات المهاجرين المسلمين إلى الولايات المتحدة الذين غمستهم هذه الحركة الثقافية الأميركية الأفريقية في الأناشيد الصاخبة؟ وهل تقوم المراكز الأكاديمية مثل مركز جامعة ديوك لدراسة الشبكات الإسلامية بالبدء بفحص الدور الذي لعبته الأناشيد الصاخبة في تشبيك المسلمين حول العالم، من جنوب آسيا إلى جنوب فيلي، ومن جنوب إفريقيا إلى كارولاينا الجنوبية؟ هذه قضايا ومسائل للبحوث في المستقبل.

وهناك حاجة إلى باحثين كي يدرسوا الزجالين الذين يغنون بثلاث لغات هي العربية، والعبرية، والإنكليزية في فلسطين وهم يشجبون شجباً مريراً طغيان الدولة الإسرائيلية، وكي يستكشفوا نضال الزجالين المغنين في الجزائر عندما يشنون حرباً على ما يعتقدون أنها أنظمة فاسدة (وهم مغنون لهم أسماء مستلهمة من الأميركيين الأفارقة مثل أول ديرتي شيم ـ أي: العار القذر القديم ـ وMC غوستو وكيلادوكس)، وكي يتفحصوا كيف يقوم الفنانون المسلمون في جنوب إفريقيا بانتقاد ما يتصورون أنه نفاق أمتهم «الديمقراطية الجديدة». فكيف تم تشبيك هذه المجموعات؟ وكيف تتصل ببعضها بعضاً وبالعالم؟ وكيف ساعدت الإنترنيت في تشبيك الفنانين والممارسين المسلمين المنتمين للحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة؟ وكيف تقوم المجموعات الإخبارية، مثل «المسلمين في الأناشيد الصاخبة» التابعة لياهو Yahoo، بالإسهام في أنشطة بناء الأمة ضمن أمة الأناشيد الصاخبة عبر العالم؟

خاتمة

وفي الختام فإن هناك حاجة لتفحص الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة بجدية في الهدف وبمنهجية تنظر في الطبيعة المشبكة للإسلام من أجل كشف الجوانب الخفية لهذه المظاهر العالمية التي يساء فهمها إلى حد كبير، وهي حركة ثقافية يمكن المجادلة بأن ممارسيها يمثلون بعض ناقلي الإسلام المعاصر ذوي التأثير الأشد حدّة. وما الذي ستعنيه المعرفة الجديدة المكتشفة بالنسبة للباحثين والعلماء الإسلاميين الذين يقومون بتدريس دورات في الفقه، وتفسير القرآن، والحضارة الإسلامية، أو الإسلام والحداثة؟ وهل تغيّر هذه المعرفة رأينا في تأثير الثقافة الشعبية، وخاصة ثقافة الأناشيد الصاخبة، في بناء إسلام يتناسب مع حاجات المجتمع المعاصر؟ وعلاوة على ذلك فهل يراجع الأئمة أساليبهم التعليمية لإشراك شباب المسلمين الذين يعيشون في هذا العالم من الأناشيد الصاخبة في مرحلة ما بعد الحداثة؟

مما لاشك فيه أنه ستكون هناك تغييرات كثيرة في طريقة دراسة ثقافة الأناشيد الصاخبة في المؤسسات العلمية الأكاديمية في غضون السنوات الخمس أو العشر القادمة. فالتأثير العالمي لثقافة الأناشيد الصاخبة قد ساهد على تغيير الرأي العام (بما في ذلك الرأي ضمن الأوساط الأكاديمية) في شكل الفن. فقبل عشر سنوات فقط، كانت ثقافة الأناشيد الصاخبة تحتل مكانة منبوذة غريبة مستبعدة

في الأوساط الأكاديمية؛ أما اليوم، فإن جامعات مثل ستانفورد، وهارفارد، وبيركلي، وديوك، وجامعة بنسلفانيا تقدم دورات في الأناشيد الصاخبة في فروع شديدة التنوع مثل اللغويات، والدراسات الدينية، والفلسفة، والدراسات الأميركية الإفريقية. وهناك اعتراف واسع بثقافة الأناشيد الصاخبة باعتبارها أحدث مثال على تقليد أميركي إفريقي صار عالمياً ومتوافقاً مع ثقافات وموسيقات عالمية أخرى، مع تشكل مظاهر جديدة لهذا الفن على نطاق عالمي (انظر آخر ما قدمه المغني المصري حكيم بعنوان طمئنّي عليك، وهي أغنية تجمع بين الإيقاع اللغوي بالفرنسية والإسبانية وبين الموسيقى الشعبية المصرية) وقد كهربت جيلاً كاملاً من الشباب بحيث زادت مشاركتهم في القضايا الاجتماعية والسياسية.

وتبقى أسئلة كثيرة لما تسميه جميلة كريم «الأمة الأميركية». هل يساعد التأثير العميق لثقافة الأناشيد الصاحبة على المهاجرين المسلمين إلى الولايات المتحدة وعلى أبنائهم وبناتهم في تقليص الانقسام الحالي بين الجماعات الإسلامية الأميركية الإفريقية وجماعات المهاجرين المسلمين؟ وهل ستكون ثقافة الأناشيد الصاخبة هي الأداة التي تساعد على توحيد «الأمة الأميركية»؟ أم هل تتقلص القوة التحويلية المقاومة لدى ثقافة الأناشيد الصاخبة بفعل حصولها على قبول واسع النطاق، وعلى تعاون بعض المؤسسات نفسها التي خُلِقَ هذا الفن ليقاومها؟ سوف نستمر في الوقت الحالي بتوثيق أنشطة بناء الأمة التي تحدث حول عالم صار مشبكاً بشكل أكثر إحكاماً عن طريق هاتين الجماعتين اللتين تبدوان متناقضتين ـ الإسلام وأمة الأناشيد الصاخبة ـ، كما تصورناه هنا، كأمة الأناشيد الصاخبة عبر العالم.

الحواشي

(1) تُعرَف ثقافة الأناشيد الصاخبة أحياناً بأنها تملك أربعة عناصر كبرى: MCing (عزف إيقاعي)، وDJing (التسجيلات الدوارة) ورقص التكسير (المعروف أيضاً باسم «رقص الشوارع»، وهو تشكيلة من الرقصات الآكروباتيكية البهلوانية المرتبطة مع المجال الثقافي للأناشيد الصاخبة)، وفن الخربشات (الذي يسميه ممارسوه أيضاً «الكتابة» و«إلصاق الرقع»). وإن فنان الأناشيد الصاخبة KRS-One يضيف المعرفة إلى هذه العناصر الأربعة. أما آفريكا بامباتا، مؤسس الحركة الثقافية للأناشيد الصاخبة فيضيف «الفهم الزائد»، وهي كلمة كثيراً ما يستخدمها الرستافاريون (وهم جماعة دينية منتشرة في جامايكا تعتقد بأن السود سيعودون ذات يوم إلى إفريقيا) ويقصدون بها ما هو أكثر من الفهم السطحي، وكذلك القدرة على قراءة ما بين السطور، والتوصل إلى معنى أعمق، مستتر أحياناً. وحتى مع هذه العناصر الستة فإن هذا التعريف لثقافة الأناشيد الصاخبة محدود النطاق تماماً. ومن المفيد التمييز بين المصطلحين: «أناشيد صاخبة» و«عزف إيقاعي». فالعزف الإيقاعي، وهو جانب من ثقافة الأناشيد الصاخبة، يتكون من التركيب الجمالي للقوافي اللغوية على الإيقاعات الموسيقية. وأما «ثقافة الأناشيد الصاخبة» فهي لا تشير فقط إلى العناصر المتنوعة المدرجة أعلاه،

بل تشير أيضاً إلى النطاق الكليّ للنشاط الثقافي والنماذج التي تشمل العالم الثقافي للأناشيد الصاخبة. ولهذا لسبب يقول بلودز: «إن الأناشيد الصاخبة ليست موسيقى فقط. بل هي طريقة حياة بأكملها!»

(2) «الوحدة الزنجانية» حركة معادية للاستعمار تعود أصولها إلى صفوف الأفارقة الناطقين بالفرنسية والآسيويين في فرنسا وبلجيكا خلال عشرينيات القرن العشرين. وكان كوجو توفالو هوينو، المحامي الداهومي المتدرب في جامعة بوردو الفرنسية، وزعيم الرابطة العالمية لتحسين أوضاع الزنوج التي نظمها ماركوس غارفي، هو الرائد الطليعي لحركة الوحدة الإفريقية. وكان قد أعلن تفاخره بعرقه الزنجي قبل عشرة أعوام من حركة الزنوجة الأدبية التي نظمها ليوبولد سنغور، وليون داماس، وإيمي سيزار. وإن العُصبة العالمية للدفاع عن العرق الزنجي التي أسسها هوينو، ومنظمة هوشي منه المعروفة باسم الاتحاد الدولي قد أسهمتا بتحقيق الوحدة الزنجانية. وإن المؤتمر الآسيوي الإفريقي الذي تأسس في الجلسة الافتتاحية للعصبة المعادية للاستعمار المنعقدة في العاصمة البلجيكية بروكسل في عام 1927، قد سبق مؤتمر باندونغ الأشهر منه الذي عقده الآسيويون والأفارقة بعد ذلك بحوالي ثلاثة عقود.